طرائف من أدب العرب

(٦)

حوائج لفظتين

« من كتاب تقويم اللسان لابن الجوزي : جواب لا يجمع وقول العامة اجوبة كتبي وجوابات كتبي غلط والصحيح جواب كتبي حاجات وحاج جمع حاجة وحوائج غلط . يقال الحمد لله كان كذا ولا يقال الحمد لله الذي كان كذا . العروس يقال للرجل والمرأة لا للمرأة فقط . لا يقال كثرت عيلتهُ انما يقال كثرت عيالهُ والعيلة الفقر »

هذا ما نقل صاحب الكشكول عن ابن الجوزي ولم يخالفهُ فيهِ ولا علَّق عليهِ بشيء . اما انا فاقول :

جاء في محيط البستاني : الحاجة السؤل ج حاج وحاجات وحوائج على غير قياس كانهم جمعوا حائجة . وهو كما قالوا عوائد في جمع عادة . وكان الاصمعي ينكرهُ ويقول هو مولَّد . وانما انكرهُ لخروجهِ عن القياس والاَّ فهو كثير في كلام العرب . ويُنشد لبعضهم

نهار المرء امثلُ حين يقضي حوائجهُ من الليل الطويل »

انتهى . ولقد أشار تاج العروس الى قول الاصمعي « هو مولَّد » وقال : اما قولهُ انهُ مولَّد فانهُ خطاء منهُ لانهُ قد جاء ذلك في الاحاديث وفي اشعار العرب الفصحاء . فمما جاء في الحديث ما روي عن ابن عُمَر ان رسول الله (صلعم) قال ان لله عباداً خلقهم لحوائج الناس يفزع الناس اليهم في حوائجهم » الخ . وفي الحديث ايضاً ان الرسول قال « اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه » . و « استعينوا على نجاح الحوائج بالكتمان لها » . ثم اورد ابياتاً للشماخ والاعشى والفرزدق وابن الاعرابي وابن خالويه تتضمن لفظة حوائج وقد خطَّأ الحريري لانهُ خطأً « حوائج » في كتابهِ درة الغواص . وقال الخليل « انهُ ترام جمعوا الحاجة على حوائج » ثابت صحة حوائج وانما من كلام العرب قال التاج « وانما غلط الاصمعي في هذه اللفظة كما حكي عنهُ حتى جعلها مولدة كونها خارجة عن القياس لان ما كان على مثل الحاجة مثل غارة وحارة لا يجمع على غوائر وحوائر » ولكن نقل عن بعضهم ان « الاصمعي رجع عن هذا القول وانما هو شيء كان عرض لهُ من غير بحث ولا نظر . وهذا الاشبه بهِ لان مثلهُ لا يجهل ذلك اذ كان موجوداً في كلام النبي (صلعم) . وكأن

الحريري لم يمرّ به الاّ القول الاول عن الاصمعي دون الثاني » انتهى . والتاج نقل عن لسان العرب . »

وكنت اقلب الاغاني (الجزء الاول) فقرأت قول ابن زياد المكي

ثلاث حوائج ولمن جئت فقم فيهنّ يا ابن ابي جرابر

وقرأت فيه عن الثريا عشيقة عمر بن ابي ربيعة : فبينا هي عند ام البنين بنت عبد العزيز بن مروان اذ دخل عليها الوليد فقال من هذه فقالت الثريا جاءتني اطلب اليك في قضاء دين عليها وحوائج لها » الخ

وعلى ذكر الحوائج تخطر « العوائد » المختلف كل الاختلاف في صحتها كجمع عادة لا كجمع عائدة . قال صاحب التاج : ومن جموع العادة (غير عاد وعادات) عوائد ذكر في المصباح وغيره وهو نظير حوائج في جمع حاجة . والذي صرح به الزمخشري وغيره ان العوائد جمع عائدة لا عادة »

اما كثرة ورود عوائد جمع عادة في ابن خلدون فلا يؤخذ بها لان ابن خلدون ليس حجة بين كتاب العرب في الفلسفة والادب لا في اللغة

والخلاصة ان كلمة حوائج صحيحة وان تكن غير قياسية لورودها في الاحاديث النبوية . وقد اخطأ الاصمعي فيها ثم اصلح خطأه . واخطأ الحريري ولم يصلح لانه بنى حكمه على خطإ الاصمعي ولم ينتبه الى اصلاحه . واشار اليها الخليل اشارة تدلّ على صحتها والقول ما قال الخليل . وقد وردت في شعر الجاهليين كالاعشى وشعر المخضرمين كالشماخ وشعر اعاظم الثقات في اللغة كابن الاعرابي وشعر كبار المولدين كالفرزدق ونثر بعض اعاظم الكتاب كالاصفهاني نقلاً عن اعلام المولدين كعمر بن ابي ربيعة ومعاصريه

اما ما استند اليه الكشكول الى ابن الجوزي من قوله « جواب لا يجمع وقول العامة اجوبة كتبي وجوابات كتبي غلط والصحيح جواب كتبي » فهو قول سيبويه لا ابن الجوزي ولكن هذا نقله ولم يذكر مصدره . والظاهر انهم لاحظوا في لفظة جواب كونها اسم مصدر كلفظة كلام فلم يجمعوها مثلها . كذلك يظهر انهم حملوا لفظة سؤال عليها حمل النظير على النظير وان لم تكن اسم مصدر وانما هي مصدر سأل لاننا لم نرها مجموعة في كتاب من كتب اللغة . ولكن جمعها ليس محظوراً ككل مصدر يتعدّد فانهم يجيزون جمعهُ مثل اشربة جمع شراب واطعمة جمع طعام . والحق يقال ان هذه مشكلة من المشاكل التي يحسن باعلام اللغة حلّها بوضع القواعد الصريحة فيها . فان الكلام كثيراً ما يقتضي جمع

بعض الالفاظ التي انكروا جمعها حيث يراد التعدد ولا يكاد المعنى يستقيم بلفظ المفرد فإما المحافظة على القديم مع ما فيهِ من الاضطراب واما الانتقال منهُ الى طلاوة الجديد . وهذا يأتي بنا الى حزبي المحافظين والاحرار في اللغة كما في السياسة . وقد دلّ الاختبار ان الاولين هم الخاسرون على مرّ الزمن وان الآخرين هم الرابحون

***

ومن الالفاظ التي كثر الاخذ والرد فيها لفظة عائلة وهل هي صحيحة ام لا . وغاية ما اهتديت اليهِ بعد مراجعة كتب اللغة والاطلاع على بعض كتب الادب ان عائلة لم تذكر الاّ في قاموس واحد هو محيط البستاني وقد جاء فيهِ انها « مؤنث العائل . وعائلة الرجل زوجتهُ واولادهُ ومن تكفّل بهِ واقاربهُ لابيهِ » ولا ادري من اين جاء بهذا التعريف . وجاء في اقرب الموارد للشرتوني « عائلة الرجل عيلهُ لم اقع عليها ولكنها تصح قياساً » . اما لفظة عيلة التي جرّب بعضهم استعمالها مكان عائلة بحجة انها هي الصحيحة وان عائلة خطأ فليست صحيحة بهذا المعنى وانما معناها الفقر كما قال ابن الجوزي . وسائر القواميس على ان عيال ككتاب وعيّل ككيس هما اللفظتان الصحيحتان . والعيّل قد يكون للمفرد وجمعهُ حينئذٍ عالة او ان هذه جمع عائل على قول لسان العرب . او العيّل واحد العيال في قول آخر والجمع عيائل

وقد رأيت ابن الاثير المؤرخ يستعمل لفظة عيالات حيث يريد العيال فقال في موضع « فلما انهزموا اقروا بالاسلام خشية على عيالاتهم فامنهم » . وقال في موضع آخر عند كلامهِ على ردّة اليمن الثانية « فاستنقذوا طائفة اخرى من عيالات الابناء » الخ . ولم اعثر على هذه اللفظة في كتاب آخر واعلها جمع الجمع مثل رجالات جمع رجال ولكن جمعاً مثل هذا ليس قياسيًّا . وغني عن البيان ان ابن الاثير ليس حجة في اللغة فان لم ترد في كتاب يؤخذ بهِ في اللغة كمقامات الحريري او اغاني الاصبهاني وجب ألاّ يؤخذ بها

الجنّ والشياطين

« قال في حكمة الاشراق عند ذكر الجن والشياطين وقد شهد جمع لا يحصى عددهم من اهل دربند من مدن شروان وقوم لا يعدون من اهل مياتج من مدن اذربيجان انهم شاهدوا هذه الصور كثيراً بحيث اكثر اهل المدينة كانوا يرونهم دفعة في جمع عظيم على وجه ما أمكنهم دفعهم . وليس ذلك مرة واحدة او مرتين بل كل وقت يظهرون ولا تصل اليهم ايدي الناس » انتهى

ولو جلست في عامة الناس تسمع ما يروون عن الجن والغيلان والتوابع الشياطين والغيلان والهواتف والسعالي لاعياك السمع وما اعياهم الكلام — سواء في ذلك عامة اهل مصر والشام وبطانيا وروسيا حتى الكنترا وفرنسا وغيرهم من البلاد العالية الكعب في العمران فقد كان العرب في جاهليتهم يزعمون ان الغول تتغول لهم في الفلوات وتظهر لهم في انواع من الصور فتغتالهم وربما ضيفوها وكانوا يزعمون ايضاً ان لها رجلي عنز فاذا اعترضتهم في الفيافي دعوا عليها بهذا البيت من الرجز

يا رجل عنز ابتغي غيقة لن تنزلي السبيل والطريقا

فتشرد في بطون الاودية ورؤوس الجبال . وقد ذكر عمر بن الخطاب (رضه) انهُ شاهد ذلك في بعض اسفاره الى الشام وان الغول كانت تتغول لهُ وانهُ ضربها بسيفهِ وذلك قبل ظهور الاسلام . فلما جاء الاسلام قلَّ التحدث بالجان كما قلَّ بعد توقع المسيحية

واذا رجعت الى القاموس وجدتهُ يقول ان « الغول ساحرة الجن وشيطان قيل يأكل الناس او دابة رأتها العرب وعرتها وقتلها تأبط شرًّا » وفيها يقول تأبط شرًّا من ابيات

وادهم قد جبت جلبابهُ كما اجتابت الكاعب الخيعلا[1]
فاصبحت والغول لي جارة فيا جارتي انت ما اهولا
فمن كان يسأل عن جارتي فانَّ لها باللوى منزلا

قال المسعودي : « وكانت العرب قبل الاسلام تزعم ان الغيلان توقد بالليل النيران للعبث والتحيل واختلال السابلة . وقد وصفها بعضهم فقال :

وسائر العنز في ساق مدملجة وجفن عين خلاف الانس بالطول

« وللناس كلام كثير في الغيلان والشياطين والمردة والجن والقرب والقدار . وهو نوع من الانواع المشيطنة يظهر في اكناف اليمن واعالي صعيد مصر » الى آخر ما هناك فليراجع في موضعهِ

والظاهر ان المسعودي استنكر ما يروى عن الجن من الحكايات الكثيرة التي ذكرها فقال « وان كان اهل النظر والبحث والمتعملون لقضية العقل والفحص يمتنعون مما ذكرنا ويأبون ما وضعنا فاوردنا ما قالهُ الناس من اهل الشرائع وغيرهم اذ الواجب على كل ذي تصنيف ان يورد جميع ما قالهُ اهل الفرق في معنى ما ذكرناهُ »

(١) جبت قطعت . والكاعب الفتاة . والخيعل قميص للنساء

وعلّل رؤية بعض الناس للجن على ما يزعمون بقوله : وقد تنازع الناس في الهواتف والجان فذكر فريق منهم ان ما تذكره العرب من ذلك انما يعرض لها من قبل التوحّد في القفار والتفرد في الاودية .... لان الانسان اذا صار في مثل هذه الاماكن يوجد لهُ تفكر ووجل وجبن واذا هو جبن داخلتهُ الظنون الكاذبة والاوهام المؤذية الفاسدة فصورت لهُ الاصوات ومثلت لهُ الاشخاص واوهمتهُ المحال بخو ما يعرض لذي الوسواس .... فتوهم ما يحكيهِ من هتف الهواتف بهِ واعتراض الجن »

ومن اغرب ما نسب العرب الى الجن نظم الشعر. فذكر المسعودي حكاية من حكاياتهم خلاصتها ان علقمة بن صفوان جدّ مروان بن الحكم لامهِ رأى في ضواحي مكة جنيًّا على صورة نصف انسان كانوا يسمونهُ شقًّا فقال الشق

علقم اني مقتول وان لحمي مأكول
اضربهم بالمذلول ضرب غلام مشمول
رحب الذراع بهلول

فقال علقمة

شق مالي ولك اقعد عني منصلك
لقتل من لا يقتلك

فضرب كلٌّ منهما صاحبهُ ففرّا ميتين

وذكروا عن الجنّ بيتًا قالتهُ في حرب بن امية حين قتلتهُ والبيت مشهور عند علماء البيان يأتون بهِ شاهداً على تنافر الحروف وهو :

وقبر حرب بمكان قفرٌ وليس قرب قبر حرب قبرُ

ودليلهم على انهُ من قول الجنّ انهُ لم يتأتَّ لاحد من الانس ان ينشدهُ ثلاث مرات متواليات لا يتتعتع[1] في انشادها

وكان العرب يزعمون ان لكل شاعر مجيد تابعًا ارجنيًّا يلقنهُ الشعر . روى مظعون الاعرابي عن ابيهِ قال : مررت بشيخ عليهِ اطمار فعلمت انهُ جانّ فقلت لهُ اتروي شيئًا من اشعار العرب فقال نعم فانشأ يقول

طاف الخيال علينا ليلة الوادي من آل سلمى ولم يلمم بميعادِ

(١) التردد من حصر او عيّ

الى آخر ستة ابيات فلما فرغ من انشادهِ قلت لهُ هذا الشعر لعبيد بن الابرص . فقال اخبني ومن عبيد لولا عبيد . فقلت ومن عبيد فانشأ يقول

انا ابن الصلادم ادعى العبيد حبوت القوافي قرمي اسد
عبيداً حبوت بأثورتي وانطقت بشراً على غير كد
ولاقى بمدركَ رهط انكيت ملاذاً عزيزاً ومجداً وجد
مخناهم الشعر عن قدرة فهل تنكر اليوم هذا معدّ

قلت من مدركٌ . قال هو ابن داغم صاحب انكيت وابن عمي وكان الصلادم وواغم من اشعر الجن

وقال ابن مظعون لما حدثهُ ابوهُ بهذا الحديث انهُ احبَّ اذ علم ان لشعراء العرب شياطين تنطق بهِ على ألسنتها ان يعرف ذلك ورجا ان يلقى مدركاً الذي ذكر العبيد لابيهِ . . . . فورد عليهِ رجل من اهل الشام فتعشيا معاً ثم وقف الرجل يصلي وجلس ابن مظعون يروي لابنيهِ شعر النابغة فانتقل الرجل من صلاتهِ وحدثهم بحديث فحواهُ انهُ لقي ذات يوم شيخاً اضرم النار وجلس حولها هو وصبية لهُ صغار . وبعد حديث طويل معهُ سألهُ اتروي من اشعار العرب شيئاً قال نعم قال انشدني للنابغة . فقال الشيخ اتحب ان انشدك من شعري انا قال نعم فاندفع ينشد لامرىء القيس والنابغة وعبيد . ثم اندفع ينشد للاعشى فقال الشامي لقد سمعت بهذا الشعر منذ زمان طويل . قال للاعشى . قال نعم . قال الشيخ فانا صاحبهُ . قال فما اسمك قال مسحل الكران بن جندل فعرف اذ ذاك انهُ من الجن فسألهُ من اشعر العرب فقال « ارو قول لافظ بن لاحظ وهياب وعبيد وحاذر بن ماضر » . فقال الشامي هذه اسماء لا اعرفها . قال اما لافظ فصاحب امرىء القيس . واما هياب فصاحب عبيد بن الابرص وبشر . واما حاذر فصاحب زياد الذبياني وهو الذي استتبعهُ

وذكر آخر انهُ لقي جنياً فاستنشدهُ من اشعار العرب فانشدهُ قول امرىء القيس « قفا نبك » الى آخر المقطع المشهور فلما فرغ قال لهُ لو ان امرأ القيس ينشر لردعك عن هذا الكلام . . . . قال انا والله مخبرهُ ما اعجبك منهُ . قال فما اسمك قال لافظ بن لاحظ فعرف انهُ من الجن وسألهُ من اشعر العرب فقال

ذهب ابن حجر بالقريض وقوله واقد اجاد فما يعاب زيادُ
لله حاذر ان يجود بقوله ان ابن ماضر بعدها لجواد

نسألهُ من هاذر فقال انهُ صاحب الذبياني وهو اشعر الجن واضنهم بشعرهِ ويروون للجنّ شعراً كثيراً يضيق بنا المقام عن ايرادهِ . منهُ قصيدة تناهز الخمسين بيتاً اولها

الدهر يأتيك بالنجائب ان الدهر فيهِ لديك معتبرُ
بينا ترى الشمل فيهِ مجتمعاً فرّقهُ من صروفهِ القدرُ
لا تنفع المرء فيهِ حيلتهُ مما سيلقى يوماً ولا الحذرُ

وقد اشار الاعشى في بعض قولهِ الى اشتراك الجن والانس في النظم وما زعموا من ان لكل شاعر تابعاً فقال :

شريكان فيما بيننا من هوادةٍ صفيان انسي وجنّ موفقُ
يقول فلا اعيا بقول يقولهُ كفاني لا عيٌّ ولا هو اخرقُ

وذكر ان رجلاً اتى الفرزدق فقال اني قلت شعراً فانظرهُ . قال انشد فقال :

ومنهم عُمَرُ المحسود نائلهُ كانما راسهُ طين الخواتيم

فضحك الفرزدق وقال يا ابن اخي ان للشعر شيطانين يدعى احدهما الهوبر والآخر الهوجل . فمن انفرد بهِ الهوبر جاد شعرهُ وصح كلامهُ ومن انفرد بهِ الهوجل فسد شعرهُ . وانهما قد اجتمعا لك في هذا البيت فكان معك الهوبر في اولهِ فاجدت وخالطك الهوجل في آخرهِ فافسدت . وان الشعر كان جملاً بازلاً عظيماً فجر فجاء امرؤ القيس فاخذ راسهُ . وعمرو بن كلثوم سنامهُ . وزهير كاهلهُ . والاعشى والنابغة فخذيهِ وطرفة ولبيد كركرتهُ[1] ولم يبق الاّ الذراع والبطن فتوزعتاها بيننا فقال الجزّار يا هؤلاء لم يبق الاّ الترث والدم فامروا لي بهِ فقلنا هو لك . فاخذهُ وطبخهُ ثم اكلهُ ثم . . . فشعرك يا هذا من . . . ذلك الجزار . فقال الفتى فلا اقول بعدهُ شعراً ابداً»

وقد اعتقد اليونان والرومان بالشرايع الذين يوحون الى الشعراء بشعرهم وسمّوهنّ « موزا » وفي الانكليزية والفرنسوية Muses وادعوا انهن نساء ورقوهن الى مصاف الالاهات . وذكرهنّ ملتن في مطلع فردوسهِ المفقود ونعتهنّ بالسموات واعتمد معونتهن على نظم قصائدهِ كما اشرت الى ذلك سابقاً

(نقيب)

(١) صدرهُ